في سبيل الاطفال

« . . . ان احسن ما تعلمه الناس هو كيفية هضم الامل ، فهم يحيون و يستمدون منه العزم لمجابهة الخطوب ! »

الاستاذ محمود الحبيب

ان الحياة تقسو علينا بفظاعة ، فيتم كل هذا يارب ؟

ـ مديحة ! ! لا تزيدي آلامي يا عزيزتي . . انك تقتلين نفسك دون شفقة .. ها هو الليل قد تلاشى ، فانجمي قليلا ، فغدا التنجيب ؟

ـ اتلومني اذا ما احسست بان القدر قد اجحف بحقوقنا ؟ واي ضير في ان يترك لنا (احمد) بعد ان سلبنا اطفالنا الثلاثة

ـ لاتعترضي على هذه الاحكام السماوية ، اذ لم اعهد منك هذه الثورة .

ـ انها قطرات قلب انزع بالفجيعة .. انها الامومة الظامئة التي حرمت منها دون الامهات فاني اشعر بفراغ يكتسح حياتي ، بل ان هذه الدار على رحبها ، اضيق من القفص الصغير بعد ان خفتت ضحكات صغارنا الى الابد .. ان دنيانا تكتنفها وحشة ساخرة ، وظلام دامس تعج به الذكريات المريرة .. انى قلبي يا (فاضل) ليتمزق كما لحت سعادة الامهات وهن يحتضن اطفالهن ، فاتمنى لو يتاح لي معشار هذه السعادة.

ـ استحلفك باسم اطفالك ان تكفي .

ـ محال .. فاني اريد ان تستمع الطبيعة والنجوم والرياح وكل الاحياء الى شكاة ام مطعونة الفؤاد .. لقد صبرت سبعة اعوام ، عسى الله ان يمن علينا بمولود يزيح عن ناظرنا هذه النهاويل المزعجة ، ولكن الاعوام البطيئة تمر ولنا في كل يوم عذاب شديد .

اخذ (فاضل) يكفكف دموع زوجه المتحدرة ، وما زال بها حتى استسلمت للنوم على ذراعه ، فلم يشأ ان يزعجها بل انصرف الى خواطره وهو يتدبر كلامها .

لقد عصف الهم بروح هذه المسكينة فبان عليها الكبر بالرغم من صباها وهو ألم يقفز الى الكهولة في سن مبكرة ؟

وراح فاضل يفكر في ولده (باسم) وكيف ازتفت روحه وهو يضرب الهواء بيديه ورجليه كأنما ليغالب الطبيعة التي تصاوله .. وذلك (حازم) الذي لم تمهله الملاريا اسبوعا واحدا ، وهو يصرخ (بابا .. ماما .. دكتور) وتتطلع العيون الى الدكتور حسني ، ولكن هذا يغادر الغرفة وهو يتمالك اعصابه بكل جهد ، ثم ينفرد ليبكي اذ ان حازما بمثابة ولد له وطالما داعبه طفلا . . انه يعلم ان الموت يزحف اليه خطوة خطوة ، ولكن ما العمل ؟

وطافت صورتا (احمد وليلى) في مخيلة الوالد ، فانعمض عينيه ، وبصعوبة جمة ، طرد هذه الذكريات المتزاحمة عليه وظل ينشج نشيجا خافتا ، وبالرغم عنه ، فقد تسللت دمعتان على خده ، ثم استقرتا على وجه زوجه الشاحب ، فانتبهت من نومها فزعة ، فلمحت المسكين في عالم الذكريات المريرة فمانقته ، واحتضنها بدوره ، وانفجرا باكيين

***

قالت (مديحة) لزوجها بعد الفراغ من العشاء في احد الايام: (ما قولك بعد هذه الحياة الجافة ، ان نتبنى طفلا يبدد ما خيم على سماء هذه الدار من قنوط ووحدة ؟ ونكون قد ادينا عملا انسانيا شريفا بعين الوقت) .

فاجابها : ان هذه الفكرة ، تحتل الجزء الاكبر من اهتمامي ولكني لم اشأ التعبير عنها ، مخافة ان اثير فيك اللواعج . امـا الآن فلاشك بانك ملاك رحيم ، وان لك قلبا حساسا عطوفا

باستطاعته ان يمني حياة رغيدة لمسكين من اولئك التعساء . . اخبرني هل انت مصممة على تبني لقيط لا تعلمين من ماضي ابويه شيئاً ؟

فقالت : نعم لقد صممت ، ولن اتراجع ، فسوف لا يهمني ماضيه ، اذ انني سأكيف حياته ، وابثه حبي وعطفي واعمل على صهره باستقامتنا وخلقنا وسنجعل من طفولته مسرحا تزدحم عليه مواكب انسنا وافراحنا .

***

وبعد يومين ، تحولت الحياة في الدار الى طابع جديد بعد ذلك الصمت الجاثم ، فعلا ضجيج الطفل الذي تبناه الزوجان . . وكانت تجد منتهى سعادتها في مجالسته ومداعبته والعناية به . . اما الاب فكان يحتار في ابتقاء انواع الدمى والعاب التي يحملها اليه ، والتي تكاثرت حتى ملأت صندوقين .

ومرت سنوات اربع ، وانطوت معها صفحات من السعادة ، والوان مستحبة من الحياة عرف فيها الزوجان سحر الليالي المقمرة ، وما يبثه الزهر من فتنة . . لقد تفتحت نفسها لاستجلاء ما فقداه بالامس من افراح الحياة ولذاذاتها

همست « مديحة » ذات يوم في اذن زوجها (يا للسعادة ان العيش يحلو ، والزمان يغني ونحن نشاوى . . كم كانت هذه الحياة جميلة لو نام عنا القدر فترك لنا جزءً من ذلك المجوع ؟)

فقال « فاضل » بلهجة عتاب (اعدت الى نبش الماضي ؟ دعيه يرقد مستريحا . فان ذلك المجوع المفقود ، ليطل علينا اليوم من سمائه ، ويبارك لنا حاضرنا الجميل . . كفانا حديث التشاؤم ، ودعينا نعيش في النور ، فقد مللنا عيش الظلام . . ان المجوع الحقيقي سيظل احقابا طويلة في عتمة لسود المقابر فما بالنا لا نتحلل من تلك القيود ؟)

اصغى الليل الداجي الى ما قالا ، فتبسم ساخرا ، وهمس موجها الحديث للقمر الضاحك [ابسط جناحيك الفضيين يا بني على هذه المعالم الراقدة ، فان احسن ما تعلمه الناس ، هو كيفية هضم الامل ، فهم يحيون ويستمدون منه العزم لمجابهة الخطوب]

وانتصف الليل على المدينة ، وكانت الريح لا تفتأ عاصفة بشدة ، فتهز اغصان الشجر بقوة ، وتحدث صوتا موحشا واذا بصرخة عاليـــة تنبعث من احدى الدور ، وترتفع الى الفضاء ، وتضيع بين انين الرياح .

ولكن (مديحة) قد استفاقت من رقادها ، واجفة القلب ، مرتجفة الاوصال . . وبدافع لا شعوري اندفعت نحو سرير ولدها الصغير ، فاذا به يغط في نوم عميق .

وهوى صوت نادب يتفجر بالفجيعة ويصرخ « والداه » على مسمع « مـــديحة » كالسوط اللاذع ، فارتمت على صدر زوجها وهي تقول : (هذا مخيف . . هذا مخيف . . ان الموت يطارد الناس في كل لحظة . . عزيزي فاضل . . ولدي عصام انكما اغلى شيء عندي في الحياة .)

وتعالى الصراخ في بيت جار لهم في مسمع الليل فدفنت الزوج رأسها بين احضان زوجها وهي تغمغم « انني خائفة يا فاضل . »

لقد تفجرت احزانها المكبوتة مرة واحدة في آلام اربعـة جروح . . وظل الصمت يجثم على جو الغرفة ، اذ لم يفلح النوم في مغالبة هذه القلوب الذاعرة .

وعند الصباح عرف الزوجان بان مرض الحصبة قد بدأ ينشر الرعب في النفوس ، وينتقل بسرعة بين الاطفال . . فاذا يفعلان ؟

قررت « مديحة » ان تصحب ولدها معها وتترك البلدة الى مدينة اخرى حيث يسكن خال لها لبضعة اسابيع ، ريثما تخف وطأة المرض ، فحياة « عصام » ليست بالرخيصة لديها ، وهكذا خرجت من الدار بعد وداع حار .

مر الاسبوع الاول ؛ وفاضل يعيش على امر من الجمر لغياب زوجه وطفله . واكتنفته الوحشة ، وهزه الفراغ ، وكان يرمق الدميات عساه يستشف منها ذكريات (عصام) ولكنها ترد عليه النظر ببرود وسخرية ، فهي لا تبعث في قلبه العزاء ، وانهارت اعصاب الرجل ، وهو يرى الاسابيع تتهاوى وزوجه لم تكتب له شيئا .

كتب اليها رسائل عدة ، فلم يحظ بالجواب ، وكان يعود متعباً من العمل ، فلا يجد الا الصمت الموجع يكتنفه في زوايا الدار وغرفها ، فمال الى الهـدوء ، وبات زائغ النظر ، وكم

فكر في اللحاق بزوجه بيد ان رئيس الدائرة لم يوافق .

واصابته الحمى ، فاحس كأن رأسه قد حاكى الطبل والمقارع تهوى عليه ، وظل يهذي ، ويتصور ولده بقربه فيمد يده ضارعا ، ولكن يداً حنونا كعيدها الى الفراش ، ذلك هو (سالم) خادمه الذي كم تألم لحاله .

وزاره الطبيب مرارا ، ولكن الحمى لم تبارحه الا بعد ان هدت حيله واسلمت جسده الى هزال وصفرة كشبح يخرج من بين الرموس .

وفرح فاضل بخلاصه من هذه الحمى اللعونة ، ولكن فرحه لم يدم اذ اصيب بالوساوس ، وشعر بالخوف . وعلى الرغم من ان الخادم يشد من ازره ويقف بجانبه في كل حين ، الا انه كان يشير الى وجود اشباح تروح وتغدو في الدار لتخنقه وتميته .. وكسرب الخبر عن طريق الخادم الى الخارج وما اسرع تصديق الناس لهذه الاشاعات الغريبة . ولم ير البعض في ضعف اعصاب الرجل ، سر هذا الخوف والتصورات ؛ الا القليل منهم.

صمم فاضل على هجر الدار ، واللحاق بزوجه بعد يومين واستطاع في خلال ذلك الحصول على اجازة مرضية .

عاد الى الدار بعد الغروب بقليل ، بصحبة اثنين من اصدقائه ليسمرا معه ، ويبددا قسما من مخاوفه . وبعد ان استراحوا دقائق ، قال الخادم لسيده (لقد وصلتك رسالة قبل ساعة ، وتركتها لك على مائدتك في الطابق الاعلى .)

فكر فاضل [ممن تكون الرسالة ؟ فهل لسنى لزوجه ان تكتب اليه بعد هذا الصمت الطويل ؟]

والتفت الى صديقيه قائلا : لا شك انها من ام عصام ، وساعرف الشيء الكثير عنها فقال احدهما : [عساها تكون كذلك]

اخذ يرتقي السلم المفضي الى الطابق الثاني بنشاط ، فقد بعث فيه خبر الرسالة عزم الشباب ، وعلا ضحك الاصدقاء والخادم وتصفيقهم فقد استرد فاضل شبابه في دقيقة واحدة

وعلى حين غرة ، وبينما هم ينتظرون هبوطه باخباره السارة ، ماتت الضحكات على الشفاه ، وعرا الجميع سكون المقابر ، على اثر صوت بكاء متقطع ، وصرخة نبض في صميمها الفزع والرعب . فتسمرت الاقدام ، وعاودت الواقفين ذكرى الاشباح وصولتها في الدار .. ولكنهم بعد دقائق ، سيطروا على اعصابهم واندفعوا يسرعون الى الاعلى ، ومالان وطأوا غرفة (فاضل) حتى لمحوه ممزق الثوب ، مشوش الشعر ، وقد توسد الارض غائبا عن الوجود .. فسارعوا يفكون ازرار قميصه وينشقونه الروائح العطرية حتى استفاق . . ففتح عينيه ، وتلفت هنا وهناك كالخائف ، ثم استدار يبحث عن شيء ، حتى التقط ورقة تحت المائدة ؛ وراح يديم فيها النظر ، فلم يتحمل الخادم هذا الصمت ، فهتف (سيدي ما الخبر؟) فانفجر الزوج باكيا وهو يقول « لقد فقدت كل شيء »

فقال صديقه : « ما الذي فقدت يا فاضل ؟ »

فاجاب وصوته تخنقه العبرات (عصاما وامه .. لقد ماتا في حادث سيارة قبل اسبوعين .. ويلاه لي من هذا المصير)

ثم ارتمى على سريره منتحبا كالنساء ، وهو يشير الى اصدقائه راجيا منهم الانصراف .. فخرجوا احتراما لحزنه وفجيعته ولكن الخادم ، الذي كان يبكي بسكون في غرفته ، احس بعد ساعة بوقع اقدام ، فاطل من خلف الباب ، فاذا بسيده يترك الدار في حالة غير اعتيادية ؛ وهو ينادي (ولدي ، زوجتي ؛ ها انذا قادم اليكما فانتظراني)

فهرع الخادم الى الشارع ، يصيح بفاضل ، ولكن الاخير راح يعدو مسرعا عندما احس بمن يتابعه ، وقد علا صياحه ، وصراخه « الاشباح الاشباح » حتى ابتلعه ظلام الليل

وعند الصباح ، اخرج المزارعون جثة رجل غريق من الترعة الكبيرة فاودعت في المستشفى بغية التشريح

اما « سالم » .. اما ذلك الخادم ، فحسبه عزاء تلك الصور الشمسية التي تسللت يده اليها ؛ واودعتها في جيبه ، قبيل حضور رجال العدل لاتخاذ الاجراءات الرسمية المالوفة بشان تركة المرحوم

البصره

محمود محمد الحبيب